عصر الموحدين

يمكن عملياً حصر الوجود المرابطى بين عامى ٤٨٢، ٥٤٢ هـ أى حوالى ٦٠ عاما، لينتهى وجودهم باحتلال الموحدين لمدينة أشبيلية عاصمتهم المختارة فى الأندلس عام ٥٤٢هـ. وهكذا يبدأ عصر جديد، مع شئ من المقاومة لهذه السيطرة البربرية الجديدة مع ثورة ابن مردنيش، والمناداة به أميرا لبلنسية فى تحدٍ للوجود الجديد لبربر الموحّدين، وينتهى تمرده بموته ووصيته بأن يوضع أبناؤه تحت رعاية أبى يعقوب الخليفة الموحدى والذى تأثر لذلك، وعين أولاده من بعده ولاة على إقليم بلنسية.

اختلفت دولة الموحدين عن المرابطين بأن خلفاءها وأمراءها محبون للأدب والأدباء، وأقل خضوعاً فى معظم الأحوال لسلطة الفقهاء القمعية، كما أنهم وإلى حد كبير قاموا بحماية الحدود الأندلسية، وكان انتصارهم فى موقعة الأرك مدويا (٥٩٥هـ). لكن بدأ وجودهم فى الأفول بعد هزيمتهم المدوية فى موقعة العقاب (٦٠٩هـ)، ليبدأ صراعهم فى مراكش ينعكس على الأندلس التى صارت ميدانا لصراعات أمراء الأسرة الحاكمة الموحدية على الحكم، كما بدأت سياسة استعداء المسيحيين على بعض الفرقاء من طرف البعض الآخر نظير التنازل عن بعض الحصون والقلاع والأرض لهؤلاء المسيحيين، لينتهى حكمهم فى الأندلس عام ٦٢٨، وبذلك استمر حكمهم ٨٥ عاما تقريبا، ليبدأ عصر ملوك طوائف جديد تحت سيادة مسيحية متزايدة، يترتب عليها انهيار الأندلس فى مسلسل لسقوط المدن. ويبدأ هذا العصر متداخلا مع أواخر أيام الموحدين إذ يثور ابن هود فى شرق الأندلس عامى (٦١٤-٦١٥هـ)، مع طموح لضم بقية الأندلس إليه. وتنتهى ملحمته بين العجز والطموح بموته عام ٦٣٥. وقد نافسه فى سنواته الأخيرة ملك طوائف جديد سيكون له

ولأسرته شأن كبير فى المستقبل هو محمد بن الأحمر النصرى الذى سوف يستولى على غرناطة بين عامى ٦٣٤، ٦٣٥هـ لينتقل إليها من جيان عاصمة مملكته الجديدة، ويبدأ عصر غرناطى بين عام ١٢٣٧م حتى ١٤٩٢م ليستمر حكم أسرته ٢٥٥ عاما مبقية وجودا رمزيا قويا للأندلس، التى انهارت وسقطت معظم مدنها فى اضطراب الأمور بين الموحدين الآفلين وعدد من ملوك الطوائف أبرزهم ابن هود وابن الأحمر. لم تبق إلا تلك المملكة الصغيرة : مملكة غرناطة .

عموما تتميز فترة الموحدين وما تبعها من طوائف بنشاط أدبى وفنى وعلمى وفكرى رائع ومتسع المدى داخل مساحة من الحرية.

ومن يتجول فى أشبيلية اليوم سوف تبهره العمارة الموحدية، ويكفى برج الخيرالدا الذى يعد من عجائب الدنيا. أما العلوم المختلفة فقد انتعشت وتكاثر الأطباء وعلماء الفلك والرياضيات. وهناك الفلسفة أم العلوم يكفى ذكر اسم ابن الطفيل صاحب رسالة حى بن يقظان وتلميذه النابه والشارح الأعظم لأرسطو "ابن رشد" (ت ٥٩٥هـ) وإذا تحدثنا عن علم النبات والزراعة فلدينا مثلا ابن البيطار الذى لا نظير له فى عالم العصور الوسطى، بجانب الجغرافيين العظام (الإدريسى مثلا) والمؤرخين وخاصة أصحاب كتب السيِّر والتراجم.

أما فيما يتعلق بالشعر ففى الصفحات القادمة سوف نستوفى ذلك الحديث عن الشعر، لكن ننوِّه إلى ازدهار المدح امتداداً لتراث الطوائف فى هذا الشأن، وقد أدرك خلفاء الموحدين الأهمية الإعلامية القصوى لشعر المدح، فأغدقوا العطايا على الشعراء. ومع كل ما سبق فإن نبرة الحزن التى سيطرت على شعر ابن خفاجة مازالت، وكادت تقترب من المواجد الصوفية التى تحاول أن تعبر عن حزن وجودى لاحتجاب الذات الإلهية عن عاشقيها، وهذه المواجد الصوفية سوف نراها صريحة ورائعة فى أشعار

الشعراء من أقطاب التصوف الذى سوف يصل إلى ذروة تُعَادِلُ أو تتفَوَّقُ على الذروة التى وصلت إليها الفلسفة على يد ابن رشد. أما ذلك المتصوف العظيم فهو الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى (٥٦٠-٦٣٨هـ). ويترك هذا الشاعر المتصوف شعراً كثيراً فى ثنايا أعماله التى اقتربت من (١٠٠٠ عمل) لكن أهمها ديوانه الكبير، وديوان آخر حمل عنوانا رومانسيا : "ترجمان الأشواق". ويعد أول ديوان شعرى (فى تاريخ الشعر الغنائى) يحمل عنوانا. كما أن له مقدمة مثيرة ليصبح الديوان الثانى فى تاريخ الشعر الأندلسى الذى يحمل مقدمة. كان الديوان الأول لابن خفاجة، وقد أوردنا مقدمته فى المختارات فى الصفحات التالية. والمقدمة اعتراف مثير من الشاعر بمثله العليا فى الشعر من شعراء المشرق الذين حاكاهم، لكن ابن خفاجة لم يذكر فى مقدمته أنه استمرار لتيار شعرى مزج الذات بالطبيعة بدأ فى الظهور قبل ابن خفاجة بقرن على يد الطليق المروانى، الذى لاحظ المؤرخون القدماء دوره المتميز واصفين شعره بأنه نمط جديد، لكن لماذا لم يعترف ابن خفاجة بأساتذته الأندلسيين؟ هل لأنه أندلسى والحديث عنهم تحصيل حاصل، أم لأن المشارقة هم الأساتذة وحدهم فى تصور أندلسى قديم؟ ليس مهما، لكن الظاهرة المهمة هنا هى هذا التقديم للدواوين على يد الشعراء. إنها ظاهرة أدبية تؤكد منذ ذلك التاريخ الدور النقدى للشعراء أنفسهم فى نقدهم لذات أنفسهم.

ومن مشاهير شعراء التصوف أبو الحسن الششترى وله ديوان كبير، هو كل ما ترك من تراث تصوفى، وإذا عدنا قليلا لاقتراب بعض الشعراء فى أحزانهم من المواجد الصوفية، فجدير بنا ذكر موشحات هذه الفترة التى اتخذها الصوفية فعلا أساسا لمجالس سماعهم فى تأويل صوفى مشروع لعالمها الوجدانى المحلق، وأبرز مثل لها موشحات ابن زهر، والتى منها الموشح المشهور :

أيها الساقى إليك المشتكى　　قد دعوناك وإن لم تسمعِ